سلطة مشيخة الطريق الروحية (*)

لقد أتى على الانسان في طور اجتماعه أدوار، ومرت عليه اجيال واعصار، وهو مغلول الارادة ومقيد الجوارح بسلطتين عظيمتين قويتين للقائمين عليهما النفوذ التام في افراده، والتصرف المطلق في آحاده، وهما سلطة الدين وسلطة السياسة، أو كما يقول أهل العصر السلطة الروحية والسلطة الزمنية. سلطتان لا يتم نظام الاجتماع بدونهما، ولا تحصل السعادة الا بهما، بل لا تكون الامم والشعوب الا باحداهما او كلتيهما الان معنى الشعب المجتمع أو الامة المتمدنة أفراد من صنف واحد وأصناف متعددة تجمعها وتضمها رابطة توحد المتعدد بوحدة الاعتقاد والعمل أو وحدة الحكم والنظام ولا معنى للسلطتين المتحدث عنهما الا ما به قوام هاتين الوحدتين من القوانين الاعتقادية، والادبية والشرائع العملية والقضائية، ولما كانت سعادة الامم بالوحدة القائمة بالسلطة كان شقاؤها بانفصام عرى الوحدة الناشيء عن نقص القوانين والشرائع عن حاجة الامة وعن نكوب القائمين بتعليمها وتنفيذها عن جادة الحق فيها وهكذا ينزل البلاء من جهة السماء، ويأتي الضعف من جانب القوة، لان النسبة بين السعادة والشقاء ونحوهما، كالنسبة بين البصر والعمى فاذا تصور العمى فانما يتصور حيث يكون البصر لانه فقده وعدمه وكذلك يقال في سائر ما يسمون المقابلة فيه مقابلة العدم

(*) فاتحة العدد الثاني والعشرين الصادر في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٦

والملكة أو النقيضين وما بمعناهما كالسعادة والشقاء والقوة والضعف والغنى والفقر والعزة والذلة وما أشبهها تا

اذا فوض أمر السلطة الزمنية أو الروحية في الامة لرجل واحد طاعته واجبة ومشيئته نافذة لا راد لامره ولا معقب لحكمه فسعادة تلك الامة وشقاؤها وعلمها وجهلها وغناها وفقرها انما يكون ذلك كله وأمثاله تابعا لحال ذي السلطة فاذا كان خيرا فاضلا حكيما خبيرا أحوذيا (هو المشمر للامور القاهر لها الذي لا يشذ عليه شيء) شمريا (بتثليث المعجمة وتشديد الميم المجرب الماضي في الامور) نهض بالامة ورقاها في معارج الفلاح وصعد بها الى قنة السعادة، واذا كان شريرا جاهلا أخرقا أو إمعاء (بكسر الهمزة وتشديد الميم الذي لا رأي له ولا عزم يتابع كل أحد على رأيه في الدين وغيره) أو عملاجا (بكسر المعجمة وهو الذي لا يثبت على حالة يكون تارة حسن الخلق وتارة سيئه فمرة ظالما ومرة عادلا وآنا محسنا وآخر مسيئا) حط بالامة الي درك الشقاء ويضرب عليها الذلة والمسكنة وينتهي بها الى شر مصير

وبالجملة ان أمة هذا شأنها تكون دائما متقلقة كقدح الراكب، لا تثبت على حال، ولا تستقر على شأن، وجميع ما انتاب الامم من رفعة وضعة وعلم وجهل وسعادة وشقاء فقد كان مرجعه لتصرف الامراء والحاكمين، والرؤساء الروحيين، ولقد كان الشر أغلب على الامم من الخير والضلال أكثر استحواذا عليها من الهدى والشقاء أشمل لها من السعادة لان الرئيس الفاضل الحكيم لا يأمن من العثار واذ عثر عثرت معه الامة وهوت وقد يهدم الرئيس الجاهل الغوي في مدة قليلة ما بنته الحكماء في الاجيال

الطويلة . لهذا كانت سعادة البشر موقوفة في نوالها أو كمالها على تحديد القوانين والشرائع الروحية والزمنية وجعل الناس فيها شرعا (بالتحريك أي سواء) لا مزية لرئيس على مرؤس الا بما يمتاز به المرؤسون بعضهم على بعض وبما لا تقوم الرياسة بدونه كوجوب الطاعة للسلطان ولا طاعة لاحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون ولكن لم تأت شريعة سماوية ولم يوضع قانون بشري لهذا التحديد والمساواة حتى جاءت الديانة الاسلامية فحددت الشريعتين (الزمنية والروحية) معا وجعلت الناس فيهما سواء لا فضل لاحد على أحد الا بالعلم والعمل واقتلعت جذور الطاعة العمياء وبينت ان الدعوة الى الحق لا تكون الا بالحجة والبرهان بمثل قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فسر العلماء البصيرة بالحجة الواضحة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وبناء على هذا كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم الرأي قائلين هل هذا شيء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحي؟ قال : فان هو من عندي جاؤا بما عندهم من الرأي بما رجع النبي الى رأيهم كما جرى في بعض الغزوات وأوقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الامام عليا مع رجل من آحاد يهود للمحاكمة وعاتبه علي بعد المحاكمة بأنه لم يساو بينه وبين خصمه لانه كناه وسمي خصمه وفي التكنية تعظيم وتعظيم أحد الخصمين ولو بمثل هذا مناف للعدالة والمساواة وراجعت امرأة عمر وهو على المنبر في مسألة تحديد المهر محتجة عليه بآية « وآتيتم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ » فقال أصابت امرأة واخطأ عمر وابلغ من هذا كله أن النبي عليه الصلاة والسلام طعن سواد ابن غزية بقدح « سهم لا

نصل له ولا ريش » في بطنه وهو مكشوف ليستوي في الصف يوم بدر فقال قد أوجعتني فأقدني فكشف له عن بطنه ليقتص منه فطفق يتمسح به وكان ذلك منه توسلا للتوصل الى هذا الشرف العظيم . وآذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه واذا كان نحو ضرب فليقتص منه وأذن لرجل أن يضربه حين ادعي أنه ضربه يوما فقال الرجل انني كنت عاري الكتف أو الظهر فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه في ذلك شأن سواد بن غزية . والنتيجة أن الاسلام قرر العبودية لله وحده والحرية في ضمن دائرة الشريعة والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات واطلاق الارادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس روحي ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبدا كاملا لله، حرآ كاملاً بالنسبة لما سواه

لقد ولينا وجهنا في هذه المقالة شطر السلطة الروحية وأما الشطر الآخر فالتاريخ يشرح ما كان من شأن حكام المسلمين وأمرائهم بازاء تحديد الشريعة وتقييد السلطة الذي جاءت به الديانة الاسلامية وكتب الفقه تشرح حقوق ووظائف الامام الاعظم والقضاة والحكام فليرجع اليها . ونعني بالسلطة الروحية سلطة العلماء والوعاظ والمتصدين للارشاد وتهذيب الاخلاق وتقويم الملكات، مضى الصدر الاول من سلف الامة والمسلمون كما قال الله تعالى اخوة وعلوم الدين مبذولة لهم على السواء يتناول كل أحد من الكتاب والسنة ماوصل اليه فهمه فان عرضت واقعة لاحد ولم يهتد للحكم فيها راجع غيره من اخوانه فان وجد عند من راجعه نصا أخذ به والا رجع الى اجتهاده ان كان من أهل الاجتهاد أو قلد من تثق به نفسه ممن يعتقد بهم العلم على تفصيل في ذلك ليس هذا محله وما كان عالم يترفع

على جاهل ولا مرشد يتأس على مسترشد ولم يدع فرد من الافراد أو صنف من الاصناف الامتياز في الدين لذاته أو الوساطة بين الله وبين سائر الناس في عرض أعمالهم عليه والتوسل اليه في قبولها أو ايصال الخير منه سبحانه اليهم ولم يكن هنالك الا العلم والتعليم من غير حجر ولا استئثار بل كان أعلم الناس بدين الله وأشدهم تمسكا به أبعدهم عن دعوى الامتياز وأكثرهم خوفا من ربه ان يأخذه بذنبه وعمله السيء ولا يقبل منه عمله الصالح لاتهام نفسه بالرياء وعدم الاخلاص فضلا عن دعوى الوساطة بين العباد وربهم .

كان الامر على ذلك حتى ظهرت في الامة فرقة الصوفية العظيمة وتصدى شيوخها للارشاد والتربية العملية ونعما هي . ساروا في هذه التربية على منهاج الكتاب والسنة وأظهروا مافيهما من دقائق الآداب والتهذيب علما وعملا وتخلقا وتحققا فصلحت بذلك سرائر، واستضاءت بصائر، وظهر لمن يعرف التاريخ الفرق بين التهذيب العقلي المحض ، كتهذيب فلاسفة اليونان المشوب بالرذائل الملطخ بحمأة المقاذر، وبين التهذيب الديني العقلي الصافي من الاكدار ، الراقي بذويه الى مصاف الملائكة الاخيار، (سننشيء مقالات في تراجم الفريقين للمقابلة بينهما ان شاء الله تعالى) لكن لما كانت التربية العملية تدور على قطب التأسي والاقتداء ولا تسكن النفس المميزة للاقتداء الا بمن تعتقد به الكمال بالغ القوم في التسليم لشيوخهم والادب معهم والاعتقاد بكمالهم الى درجة ألزموا فيها المريد بالطاعة العمياء لاستاذه واعتقاد ان جميع ما يصدر عنه من قول وعمل هو فضيلة وكمال وأوجبوا عليه أن يؤول له ما يتراءى انه ذنب أو نقيصة وغالوا في ذلك

حتى قال بعضهم اذا رأى المريد شيخه يشرب خمرا فينبغي أن يعتقد ان الخمر استحالت ماء أو عسلا قبل ان تصل إلى فمه المبارك كرامة له وحتموا عليه ان يعتقد بأنه لا يصل الى مقام المعرفة بالله تعالى ولا ينال الزلفى والرضوان من لدنه الا بهذا الاعتقاد والطاعة من غير انكار في الظاهر ولا في الباطن وان خالف في ذلك أو ترك الشيخ لغيره أو مطلقا فهو على خطر حتى على أصل ايمانه ودينه

قلنا أن السلطة المطلقة والطاعة العمياء تكون فيها سعادة المرؤس منوطة بحال الرئيس وكذلك كان الشأن في طريقة الصوفية فلقد قام فيهم أئمة عارفون يهدون بالحق وبه يعدلون سلكوا سبيل السلف الصالح في التواضع والتبرؤ من دعوى الامتياز والترفع على الناس والتنصل من الشطحات والطامات التي لا يشهد لها الشرع وحصروا الارشاد بالعلم النافع ، والعمل الصالح، والتخلق بالاخلاق الفاضلة، واهتدى بهم خلائق لا تحصى، وكيف لا يهتدي من يقتدي بالعالم العامل ويطيع الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر

نعم قد اهتدى بالسلطة الروحية المطلقة والطاعة العمياء لشيوخ الطريق أقوام ولكن الذين ضلوا أكثر من الذين اهتدوا وفاقا لما قررنا آنفا فقد قام بعد أولئك الشيوخ العارفين شيوخ جهال ألقوا بذور الضلال في نفوس أتباعهم فنبتت وأثمرت ثمراً خبيثاً تجني الامة منه حنظلا وتطعم زقوما . لقنوا الناس الجبر بعنوان التوحيد واسم القضاء والقدر وعلقوا نفوسهم بالشيوخ أحياء وأمواتا وعلموهم الاستعانة بهم في مصالحهم

بحجة انهم أصحاب كرامات وشفعاء عند الله يتوسطون بينه وبين عباده في حاجهم وان كانوا رمما في قبورهم حتى قال بعضهم لا فرق في طلبنا الحاجة من الحي وطلبنا اياها من الميت لان كلا منهما لا فعل له ولا تأثير في الايجاد وكلا منهما قد يكون واسطة — الحي واسطة جسدية والميت واسطة روحية ـ وكسلوهم عن الاعمال النافعة والمصالح العمومية باسم الزهد والتسليم للقدر وغير ذلك مما لا سعة فى هذه المقالة لشرحه . ولم تقف مضرات جهلهم عند هذه الوساوس الدينية بل استعملوا نفوذهم لخدمة سياسة الاجانب وتمكينها من الاستيلاء على أمتهم وانا نروي لك بعض شأنهم في ذلك فاعتبر بما يروى البقية للآتي

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

ألمنا في المقالة السابقة ببعض تعاليم الجهلاء من شيوخ الطريق وذكرنا انمنها تعليق النفوس واناطة الآمال بالشيوخ أحياء وأمواتاً ، وتعليم الناس الاستعانة بهم على قضاء الحاج ، بحجة انهم أصحاب كرامات وشفعاء يتوسطون بين الله تعالى وبين عباده في درء المفاسد والمضار، وجلب المنافع والمصالح ، ولما كان هذا من الاعتقادات المضرة التى هدمها الاسلام كما ألمنا في المقالة المتقدمة ، وكان ما كتبناه سابقاً في منكرات الموالد لم يكف لاقناع جميع الآخذين به لايجازه واجماله أحببنا أن نزيده ايضاحا ليتميز الحق من الباطل فنقول :

الذاهبون الى أن من الدين الاستغاثة بمن يعتقد فيهم الولاية أحياء وأمواتا والوقوف على الاجداث والقبور لطلب المصالح التي عز طلابها، والحاج